محمد عيتاني

انطباعات عن « العراء » المليء ...

لعلها عادة غير أكاديمية ، ولا أصولية من حيث النقد الادبي والفني ، لكنها تسيطر علي ، باستمرار ، لا سيما حين اكون امام اعمال جميلة ، باهرة الجمال وملتبسة ، في وقت معا . فبعد ان انتهي من التعامل مع أي انتاج فني أعود الى وجداني ، وكياني الداخلي ساعيا بكل تدقيق لاستبطان حقيقة تأثراتي وانطباعاتي ، التي تتلوها ، احيانا ، وتؤسس عليها احكاما ربما اصابت ، وربما اخطأت ، لكنني اطمئن اليها عادة ، فهي حلقة من حلقات حركة تلك المعرفة النوعية الشديدة التعقيد : الادراك الحسي للاثر الفني .

وأسارع للانتظام ، و « الدخول في موضوعي » فأتساءل : أيشيء أحسسته بعد قراءتي مجموعة « العراء » (١) القصصية للدكتور سهيل ادريس ، التي صدرت منذ حين قريب ؟ وبعد استسلام ـ واع ـ لاندياحات المشاعر وتأثيرات الصور والاحداث والوجوه والشخصيات ، والقضية في جملتها المأساوية المقاتلة ، وتفاصيلها الدموية والباسمة في الوقت ذاته ، اتضح لي انني خرجت متغيرا بعض الشيء ، أو كثيرا ، اثر قراءتي هذه المجموعة المكثفة ، الصارمة « العراء » والشديدة الغنى في نفس الحين ، الملتزمة ، والمنفتحة على حرية الفرد الانسان ، تلك الحرية التي يراها المفكر والكاتب والفنان سهيل ادريس بعين المسؤولية ، وذلك لا يبعده كثيرا عن الرؤية الثورية لمسألة الحرية : الحرية هي فهم الضرورة .

لكن المسألة مسألة مجموعة قصصية وليست بحثا فلسفيا أو ما يشابه . وقبل ان أتخلى عن هذه الاستطرادات التي أجس بها أوتار ذائقتي الادبية ، ولا فخر ، أقول ان قولا لاحد مفكري الوجودية قد خطر لي ولكن معدلا حسب « الضرورة » :

الفيلسوف ـ الانسان وتر مشدود بين لانهايتين : العدم المطلق والوجود المطلق .

الناقد ـ مجموعة « العراء » لسهيل ادريس عمل فني مشدود بين القضية المطلقة ، الفنية أبعادا ووقائع وقيما ومسؤوليات ، و « العراء » المطلق ، ولكن الظاهري . ولانني ، والحمد لله ، لست فيلسوفا ، فقد جاءت صيغتي أطول وأكثر تفاصيل من صيغة كيركيفارد تلك ..

وأوجز : ان من يقرأ مجموعة « العراء » القصصية يخرج منها وقد تغير داخله نحو الاعمق والاوسع والاحزم والاذكى وخصوصا : نحو الاجمل . بذلك يحس قارىء العراء ، بل يدرك ادراك الوجدان الواعي والحازم والصادق والمستقبلي ، الغاضب دون تشنج ، والمتفائل دون سذاجة وروية مزيفة ، والمقاتل بتواضع المقاتلين الحقيقيين .

هذا من حيث الانطباع النهائي الوجداني والحسي الفني والادراكي العام .

مجموعة جديدة ، انسان جديد ، مأساة متشعبة الابعاد الجريح في كل جرح من جراح ابطالها البسطاء ، وأغلبهم فتيان من عامة الشعب . فهذا الرجل الذي تجاوز الخامسة والاربعين ، كما أظن ، قد زرع في مجموعته هذه الجديدة ، حضورا حيا ، مثيرا لما لا يمكن التعبير عنه من مشاعر البهجة والاسى النبيل : شباب شعبنا وصبایاه ، مناضلين ومقاتلين وفدائيين وعشاقا وراقصين ... ومن اول قصة في المجموعة الى اخر قصة ، نحس بهم ، حملة الراية الجدد هؤلاء ، الذين يملأون الساحة العربية اليوم قتالا ورفضا ، بحثا عن ذات فردية وجماعية ، ومواقف بطولية ومشاعر بما يشبه الخزي لدى فئة واسعة من مثقفي شعبنا العربي، ومثقفي « العراء » . وان التماثل قائم ، تقريبا ، عند كل منحنى من المنحنيات الفنية والشاهدة عبر فن « العراء » على ما هو أعظم بل قل على ما هو هدف الفن الكبير : تغيير الانسان وتحقيق واقع حضاري له ، ان سهيل ادريس يقول في مجموعته : نريد واقعا حضاريا ، لا أحلام حضارة .

ولكن لنبدأ القصة ـ (القصص) من اولها ـ فالتحليل اولا ، ثم التركيب ، وذلك على الاقل لانني أكتب عن واحد من أركان أدبنا العربي الحديث وفكرنا الحديث الملتزم المؤرق والمضيء في الوقت ذاته ، له حضوره الابداعي والاكاديمي المشهود .

تضم مجموعة « العراء » سبع قصص ، وسبعة وجوه لسبع قضايا هي ، في آخر تحليل ، وجه واحد لقضية واحدة ، يعمل فيها السكين شقا وتقطيعا فعله في برتقالة فلسطينية ، ليرى داخلها بذورا ومياها وحموضة أيام .

القضية في مجموعة « العراء » هي قضية الانسان العربي اليوم، معاصرنا المقاتل الذي خانوه فما خان نفسه ، قضية أبناء هذا الشعب الذي ما انفك يأكل بذور الخزي ولا يخزى .

في قصة « الاسلاك » حكاية قتال ونزوح وحب عميق وملتبس .

وفي « زمن الهزيمة والنصر » عار القمة وأمل القاعدة المتألق .

و « العراء » عبر أحداثها المدهشة التوتر والصدق والبساطة ،

---

(١) منشورات « دار الآداب » بيروت ـ ١٠٤ صفحات ـ كانون الثاني ١٩٧٤ .

والغرابة الباروكية السوريالية والواقعية معا من حيث طريقة الوصف وتداعي الافكار ، هي في اخر تحليل ، مشكلة المثقف العربي مع قضيته وضميره وقلقه على مكانه في المعركة .

أما قصة « شيخ الكرامة » فهي شهادة على استمرارية النضال والقتال ، مع أبعاد أوسع ، يمكن عن طريقها أن نلمس راي كاتب فنان ، صارم مع فكره ، صارم مع فنه ، لذلك فهو يصل الى ما يريد ، وبايحاء موجز ، قصير اللفتات واللمحات والقسمات ، كالشعر ، لو ان الشعر ـ اكثره ـ يستطيع ان يحمل شحنات لا حد لها من العقل والوعي والاحساس عبر ناس من صميم واقع حاضرنا ، تراهم انت واراهم أنا ، وربما كانوا أنت وأنا وهم ، أي عامة أبناء شعبنا في لحظته هذه المأساوية التحولية الثورية الغائمة . لكنك لا تستطيع فهمهم جيدا ، والدخول الى أعماق مشاكلهم الجزئية ـ الكلية التي تتدرج كغصون متفرعة عن جذع ضخم في نظام بناء الشجرة ، الا اذا قرات هذه المجموعة القصصية التي تضرب جذور عمقها في نداوة بساطتها وشاعريتها في احيان . ولكن يا للحسرة ... فالدماء حين تضيء تكون قهرا وعذابا وشهادة ، تسمى من الخارج : بطولة . وفي جميع قصص سهيل ، في « العراء » دماء ، بعضها يسيل سخيا ليستعيد موعدا مع الكرامة ، والبعض الآخر يغلي غضبا أو خجلا او حيرة امام مسائل بسيطة : ما العائلة ، ما الحب ، ما الاولاد ، من نحن ، كآباء ، ومن هم كأبناء ، رصانة تواجه تخابثا ، ولكن عبر ذلك كله نستشف حركة الحياة العميقة تلك التي أوصى غوركي كتاب الواقع والفن الاكتشافي بأن يلتمسوها في أعمالهم . اقترح ولم يوص ، والمسألة ليست هنا ، على كل حال .

أما « العبور » فهي قصة ادانة والتباس مصير لمناضلين ، وتكملة من الاماني المتفائلة شموخا وغضبا وحكمة وربما استشهادا .

وقد يبدو ان الدكتور سهيل ادريس يقيم توازنا شعوريا حياتيا وجماليا حين ينشر في خاتمة المجموعة قضيتين تبدوان ظاهريا بعيدتين عن العرق العريض الذي يجتاز سائر قصص المجموعة : هناك وجوه حية ، دامية حتى الاعماق من وجوه معاركنا ومآسينا . وهنا في قصتي « القراءة في العيون المغمضة » و « نكهة خاصة » تجارب رحلات خارج البلد والبيت ، وفيهما حكايات لقاء وانغام صبابة واشتهاء ورقص ، وفتيات احداهن باتريشيا الايطالية ، مثلا ، ذات « بنطال أسود ترتديه تحت كنزة صوفية تشد نهدين ينبض فيهما التحدي ... » الخ . واذا علمنا بأن هذه القصص السبع هي كل ما كتبه سهيل ادريس منذ عام ١٩٦٦ أدركنا أهمية ما يتمتع به من حس فني ملهم ، حين توازن ابداعه ـ النقد الحديث يفضل ان نقول « انتاجه » ـ بين توتر قضايا المصير اليومي والتاريخي وانفراج القلب والروح في ساعة الحب والصفاء .

لكن هذه الموضوعة غير دقيقة ، اذا قرانا قصص « العراء » بأناة وانعام بصيرة . اذ ان كل قصة من قصص هذه المجموعة تحتوي في بناء عضوي ، تلقائي شعوري وواع معقلن جماعيا ، في الوقت ذاته : مواجهة الاعداء ، الدخول في لعبة أخذ الموت واعطائه ، ورسم تلك اللحظات التحولية التي كتبت علينا اليوم ، كما كتبت على الذين من قبلنا ، لحظات تحول سلاح النقد الى النقد بالسلاح . ومن هذه الناحية تتضح لنا الخلفية الوجدانية والمأساوية لبعض ابطال المجموعة من المثقفين الذين يمزقهم بعدهم عن المعركة الكبرى ، وفي كل قصة وجه آخر ، تندمج أحداثه ومشاعره ومواقفه اندماجا عضويا في نسيج قصص « العراء » ، هذا الوجه المكون من التفاصيل ـ المكثفة عند المؤلف ـ لمسائل الحياة اليومية العادية والمهمة معا : مسائل البيت ، البيت العربي ، والعائلة ، والحب ، ولقاء الآخر ، والتمزق ، والحيرة الرمادية . ومن امجاد سهيل ادريس ان اليأس ليس خبزا يوميا لابطاله ، بل لعلنا لا نجد بينهم من يعتبر الهرب الى العدم بطولة في مكانها وزمانها . ولاكمال دائرة هذا الحكم ينبغي الاشارة الى ان المؤلف في قصصه هذه بعيد تماما عن أية نزعة خطابية ، لكنه ، وهو ابن عصرنا البكر ، وواحد من الشاهدين على بهجاتنا وماسينا ، اكتشف البطولة حين قدس النضال وعرف العذاب .

قارىء مجموعة « العراء » يظل طويلا بعد قراءتها يتساءل : من أين ينبع كل جمال هذه الاحاسيس وقوة هذه الحكمة ، وما سر هذه القصص البسيطة في اكثرها ، وما هي هذه البهجة النصف ـ نغمية ، شبه الخبيثة ، التي تأخذ باجتياحك شيئا فشيئا عبر قصص النزوح والفداء والخيانة والحب وبطولة الجدود ونبل الابناء (البنات : « رنا » في القصة الاخيرة « نكهة خاصة ») والملامح التي لا تنسى يقدمها لنا الكاتب عن فتيات أوروبا (وهو ، على كل حال ، « عتيق في الكار » ، هنا ، « الحي اللاتيني » الخ .. الخ) ؟

أرجو ان لا أقدم حكما تقريريا ، ولا نظرات عامة الى الحركات الداخلية لجمالية هذه القصص ، بالمعنى الواسع ، الواقعي الثوري الملتزم للجمالية ، اذا قلت ان كاتب هذه القصص قد استطاع أن يخرج من اعتراكات الخاص ونوعياته التفاضلية المجهرية ، الى شمولية العام ، من الشخص الى الانسان ، من المقاتلين الافراد الى التاريخ المتحرك الذي يبني كرامته وحضارة أبنائه من قتام الجانبين السالبين ، وكلها يحس بها سهيل ادريس ، ويعيشها ويكثفها في قصصه هذه .

لكن مجموعة « العراء » هي اكثر من التزام بقضية ، وتقديم صور متعددة عن مختلف وجوه هذه القضية . أكثر : اي ان الكاتب لعمق معاناته لقضيتنا قد وصل الى الاغوار الجذورية الجوفية لقضايا سائر الشعوب ، وسواء أكان يقصد ذلك أم لا ، فان هذا الواقع يظهر في العديد من قصص « العراء » . فلنقرأ هذه العبارة الواردة في قصة « العبور » (ص ٦١ من المجموعة) :

« وسمع الطائرات تعود وهي تطلق نيرانها على غير هدى ، في كل اتجاه . وظل يحدق في المشاعل المعلقة بالسماء » .

ومثلها ، في قصة « شيخ الكرامة » :

« المناضلون يطلقون نيرانهم على الطائرة ويعطبونها : غير ان عدة جنود اسرائيليين خرجوا منها مدججين باسلحتهم فراحوا يقذفون البيوت بقنابل يدوية ويصبون نارهم على كل شيء يحسبونه يتحرك ، ولو كان ورقة على شجرة ».

ورغم وجود « الاسرائيليين » في ثانية العبارتين هاتين ، فيمكن ان يتساءل القارىء : الا يصف الكاتب هنا قتال شعب الجزائر ضد اعدائه ، وكفاح شعب فيتنام ضد الغزاة المتدخلين ، هذا العدو الاهوج ، الذي يقدم لنا سهيل ادريس بلمحتين سريعتين صورة دقيقة وموحية عن « شخصيته الداخلية والخارجية » في اية معركة خاضها شعب ضد غاصب ، ولم يكن القاتل كما وصفه سهيل والمناضل ضد القتل ومن اجل الحياة والحب والحضارة ، كما قالته قصصه ؟

ثم ان المؤلف ، في مجمل النسج العضوية لابنية قصصه ، يعتمد « مبدأ الضرورة » في الكتابة ، فالبناء القصصي هنا ، في كل قصة ، بصرف النظر عن توترها او انفراجها ، وعبر المواقف المحسوسة والوان العواطف وتقام لحظات الخزي والموت وبهجة الحب والامل والاستمرار ، تكاد لا تشعر بها اية فضول او لمسات تجميل لا ضرورة لها . ويكفي ان يتأمل المرء في لغة القصص ، انها الشكل الصارم البناء والانتقاء والموحي الى حد بعيد ، والمتجلي عن مضامين صارمة من حيث انها تنبع جميعا تقريبا من قضية واحدة ، لكن هذه القصص ، التي عرف كاتبها كيف يختار زاوية الرؤية ، ومن اين يلتقط الصورة ماذا يعطي وماذا يمنع ، كيف يقول وكيف يصمت ، اكثر من ذلك هناك تماثل ، وتعادل ، وتوازن ، ومطابقة شبه كاملة بين ابعاد مضمون اية

قصة من قصص « العراء » ومعادلها الفني والجمالي والصوري والجملوي واللفظـي .

هذا « الاقتصاد في الكتابة » هو الذي زاد اقناعنا بمعاناة ابطال المجموعـة مختلف اللحظات السوداء والمضيئة لمعركتهم وسائر ابعـاد قضيتهم . فالحزين لا يثرثر . والمتحفز لقتل المـوت لا يسهب . ان الفدائي شخص ، وحكواتي المقاهي العنترية شخص اخر .

في البدء كانت العواصف فاندرجت في عاصفـة واحدة كبـرى فتوهجت في بضعـة بروق ورعود ، ثم شعشعت بالموت والحب سبـع ازهار على غصن « العراء » . تلك هي ، بايجاز شديد العمليـة التي وفق الى انجازها صاحب هذه المجموعة .

* * *

صحيح انه يمكننا الاكتفاء بما تقدم ، ونكون قد أعطينا الملامـح النقديـة التحليلية ـ التركيبية لهذه القصص . لكـن قصص المجموعة تستحق نظرة متأنية من حيث تقنيتها . فالحكي عن التكنيك الفني في هذه الايـام شائع . ولا سيمـا ممـن لم يسمعوا بشيء عنه . وهبه لم يشع ، فهـو ملح الفـن بل حامل معادله الاساسية الى جانب الموقف الانساني الثوري من الحياة والوجود ، وهذا واضح في قصص«العراء»، والقدرة على التشميل ، اي التحرك من الخاص الى العام ـ وهـو عند سهيل ادريس تلقائي انسيابي مصاغ ومستصعب مشغول بشكـل مدهش ـ في وقت معـا .

ولعله يمكن ، بالاضافة الى ما سبق قوله ، ايجاز الملامح البنائية والطرائق الفنية التي تحفل بها هذه المجموعة كما يلي :

ـ في اطار تكثيف رائع للحادثة وسيرورة الزمـن وملامح الناس والاشياء (روب ـ غريبه حيث البطل عنده متعين وعام ، عصب وحركة هنا تلاق لو كـان استاذ « الرواية الجديدة » صاحب قضية) ، فـي قصص « العراء » نجـد القاص يتحرك في رسم انسان وزمـان ومكان قصته (وخاصة في صدد ملامح الانسان في حركتها اليومية والدهرية معا) يتحرك القاص من عبارة الى ثانية ، بحركة اشـارات حاسمة، حازمة ، ودقيقة بل ناعمة الدقة ، وفروقية nuancée بالمعنى الدقيق للكلمـة . يكفي ان تقرأ الصفحـة الاولى من المجموعة (قصة « الليل والاسـلاك ») .

ـ وفي هذا السياق ذاته نجد اكثر ابطاله ، يبرزون في سياق القصة هكذا ببساطة وهدوء كمـا تتفتح زهرة او يسقط رأس شهيـد على كتفه ، هكذا يقدم القاص لنـا اكثر اشخاص قصصه مـع انهـم صناع موت،ورجال فداء وقتال ، وفتيات متحررات ياخذهن موج المصير ماخذ حزن وخيبة وبهجة مشوبة دائما بالاستلاب الـذي يكشفه لنـا سهيل ادريس لدى نسائنا وفتياننا وابناء امتنا بعامة ، لكنـه ، وقـد سبقت الاشارة الى هذه النقطة ، استطاع ان يقدم لنـا صورة مضيئة بتواضع وقوة معا ، لانه استطاع بوسائل عدة ان يـرى الغابـة عبـر الاشجـار .

ـ وقد استلزمت هذه التقنية من الكاتب ان تكون ، في كثيـر من الاحيان ، بسيطة بساطـة مندرجة في السياق تمامـا ،والبساطة الفنية لا صلة لها ، بالتسطح او السطحية عامـة . فابطال« العراء » هـم من عامة الناس ، تتعقد داخلهم وخارجهم وقائع مآسيهم ـ التي هي مآسينا ايضا ـ حيث يعطينا الكاتب ان نرى، كما تقول ايلساتريوليه، لدى الترجمة السريعة ، او حيث « يجلو لنـا اسرار الاشياء » ، اذا كنت تفضل ذهاب الناقـد ايضا الى جذر المسالة .

ـ وحول مبدأ التحول من الكم الى الكيف في افق الفن القصصي ومع المحافظة على حرارة قضايا الناس والمصائر والمواقف التي يقدمها لنـا سهيل ادريس ـ نجـد ان صورا نموذجية تتكـون عبر كل قصة ، وغالبا عند منعطف مهم ، مصيري ، من منعطفاتها . هنا يبلـغ التكثيف الفني في نسيج القصة ذروات مرموقة :

عن مشهد للاسرى العرب خلال حرب حزيران « ظل يتامل سحناتهم، وايديهم وراء رؤوسهم ، والذعر في عيونهم التي تتطلع الى فوهـات البنادق والرشاشات تحملها ايدي نساء .»
ثم :

« وتململ في ضيق (*) ، مرة اخرى يلتمس المعاذير والمبررات لهم ، لنفسه ، بل حتى للقدر الذي ارسل الصاعقة .. » انه « الذل والهوان بين ايدي هاتيك اللواتي كانت امثالهـن في بعض تاريخ قومه يوصفني بالقوارير . انتهما القوارير الفاغرة المتلمظة التـي لا هم لها الا ان تتلقى ما يقذفه الذكور في احشائها العطشى » .

وعن المظهر السكوني لنـا نحـن كعرب ، مع ان الموقف مـوقف صراعي مأساوي (في قصة « العبور ») نقرأ ما يلي :

« وقال يطمئنها انهم سيكونون الان اكثر صمودا .

فاكتفت بالقول بأن اولئك سيكونون اكثر شراسة . وفكر بالذين يدعمون المنظمـة من الخارج . وهم بان يقول انهم سيتدخلون ، ولكنه تمثلهم مجتمعين حول الموائد وفي الفنادق يتكلمون ويتكلمون ، فـآثر الصمت » « نعم . سيتدخلون ، ولكـن بعد وقوع المجزرة ،وسيرسلون الرسل والبعثات ، وسيطلقون التصريحات والاتهامـات ، بـل سليجأون حتى الى التخويـن ثم مـاذا ؟ » الخ .

لا اظـن هذه الصورة بحاجة الى الدلالة على مـا فيها من نوعية رفيعـة النموذجيـة شبه الشموليـة كتعبير ووصف لممارسـة سوسيولوجية كادت تصبح من تقاليد الكثيريـن جدا من ابناء شعبنـا. واقـرأ معـي :

« ثم رأى عن بعد اعلاما بيضاء مرفوعة على فوهات البنادق .

هذا سطر واحد يوجز بصراحة و«سطوع» وجها عميقا من وجوه حارنـا (وهـو مكثف كله مع اضاءته ـ بنقيضه الصمودي ، وذلـك في قصـة « العبور » هذه ذاتها ،حين اختار العديد من الفدائييـن الاسر الاسرائيلي على المـوت بنيران « الاخوة الاعداء » كمـا يسميهم الكـاتـب .

« ان بي حاجة الى الابتعاد عن اجواء العمل كلها،الى شيء مـن النسيان ، الى غيبة او غيبوبة عـن جهاز التلفون . هذا الذي يستطيع بلمحـة بصر ان يوفر لي الحضور الثقيل ».

انه يريد « ان يضرب في شوارع هذه المدينة على غير هدى ، ان ينيه ، بل ان يضل اذا استطاع ، ان ينساهم جميعا ، الزوجة ، والاولاد ، والمكتب ، والعمل ، والمنزل ، ان يفتش عـن اجواء جديدة، فيهـا نكهـة الاغتراب ، عن درب جديدة لم تعرفهـا قدماه ..

وهنا ايضـا لا حاجة للاشارة الى موضع الجرح في خصر لعازر، الشغيل الفكري الحامل تبعات زوجـة ، ايـة زوجة ، واولاد ، ايـا كانـوا .

لقد قدم لنا الكاتب صورة نموذجية انسانية نكاد نجـدها فـي كل بيت،السعيد منها والشقي . والصدق هنا ، وتوخي وجه الحقيقة ولو كانت جارحة ، يفرض نفسه على كاتب يمكـن اعتباره في قصصه

(*) الحديث هنا عن احد ابطال قصة « العراء ».

« العراء » في اوج نضجه ، ولانه ملتزم ، فهو في هذه الاعمال في مستوى عال جدا من صدقه الذي يشكل اساسا من اسس روعة وقوة هذه القصص .

ـ ومع ان سهيل ادريس لا يغرق في هذه القصص ولا يسترسل في اجواء الحوار الداخلي او الالعاب النارية التقنية المدهشة عن قصد ، ولا حتى في التحليل النفسي السرديأو الاستبطاني ، فان كل المواقف والملامح واللاحم المجهضة والبهجات والعواطف ، وبكلمة : مسالة الوجود الشمولي المتعدد الابعاد والمستويات والمواقف لناس معينين في زمن معين ، والكاتب الذي يستطيع تحقيق ذلك ، يمكن اعفاؤه من الاعيبه التقنية القصصية الحلزونية واعتباره من الموفقين في فنهم ـ .

ـ كما نجد عبر اقاصيص المجموعة وفي ابنيتها وحركاتها الموحية دقة ملاحظة للاشياء ، ورباطة جاش واقتصادا وصرامة لدى تصوير اللحظات المأساوية ، العائلية منها او القومية او الانسانية ، بعامة .

ـ ثم ان اشخاص سهيل ادريس في « العراء » هم اشخاص حقيقيون ، لا يختلفون كثيرا عن الناس الذين نراهم كل يوم في كل مكان . وهذه الرؤية لشخوص القصة دفعت احد النقاد يوما للقول (في صدد رواية المؤلف (اصابعنا التي تحترق) بان صاحب الرؤية لا يعدو كونه طبيعي النزعة ، فوتوغرافي الاسلوب) .

والحق ان الناقد المذكور كان بحاجة الى الانتباه لحقيقة بسيطة يجتنب معها هذا الحكم غير الدقيق . ان عادية اشخاص سهيل ادريس وطابعهم اليومي وعفويتهم ترفع من فنية قصصه ، وذلك لسبب بسيط . وهو انه كاتب شمولي ، قومي ، انساني ، مقاتل . وحجارة البناء الضرورية لمثل هذا الكاتب هي : الاشياء والاشخاص فيصفاتها العادية ، ذلك لان الحركة التاريخية ، والاوضاع الثورية ، والصرامة في تصوير تناقضات الناس والاشياء ، هي التي تجعل من العادي « الفوتوغرافي » في قصص المؤلف ، رموزا تسجيلية ، وايحائية ، كثيفة الشحنات ، موجعة الاثر ، ان لم يكن حديث القاص بتناول لحظات البهجة والفرح بالوجود .

ولعل كون الكاتب قد عايش من الداخل حياة الواقع العربي والانساني ، في مسيرتها الثورية ، الجميلة والكئيبة في آن معا، هو الذي اعطاه هذه القدرة على تكثيف المواقف ،وقول حقائق الحياة عبر اشخاص احياء ، ومسائل حارة ، ومصائر من موت وحب وطفولة.

اما لغة الكاتب ، في « العراء » فهي شاقول البناء ، وزئبق الميزان ، وابجدية الابداع . لغة عصبية ، متوترة ، دقيقة ، على رصانة فيكل حين ، حتى في لحظاتالسخرية والمرح ، علما بان الجوّ الغالب على قصص العراء هو صورة ، بمستوى الفن القصصي ووسائله ، لكآبتنا منذ حزيران ٦٧ وربما منذ اعوام طوال قبل ذلك .

ومن جهة اخرى فقد استطاع سهيل ادريس في هذه القصص صياغة لغة للبقاء و« الاستهلاك اليومي » اذا صح التعبير . وهذه ميزة لا نجدها عند كثيرين .

★ ★ ★

قد لا ينتهي بي الحديث اذا اردت ان أفي هذه المجموعة حقها الكامل ، الطرافة والجمال في تصوير النساء والبنات عبر مواقف نموذجية لا يمكن ان تستمد الا من معايشة عميقة ومعاناة عصرية جدا لمسائل الجنس الاخر ، الموسوم باللطف . وهو لطيف ولا شك ، في الحياة ، لكنه اكثر روعة واجمل لطفا وبهاء في « العراء ».

طبعا كان يمكن للمؤلف ، بعد ان امتلك ابعاد القضية ، الموضوع الاساسي للقصص ، وعاشها بحرارة ، وذلك يتجلى بقدرة هذه القصص على ان تحدث لدينا انفعالا وطنيا وقوميا وانسانيا ، وجماليا قبل كل شيء .أقول كان باستطاعة الكاتب ان يذهب في بنائية قصصه الى اخر صرخات الاساليب الحديثة جدا . فهو ليس غريبا عنها لكن « اشياء الجمال في الفن ، ذات دور وظيفي » هكذا يقول بريشت . وهكذا كتبسهيل ادريس قصصه الرائعة في مجموعته الجديدة « العراء » .

لقد كتب ادباؤنا وشعراؤنا ومسرحيونا الكثير الكثير عن القضية الفلسطينية ، وعن الوقائع الحسية والمصيرية ، بلغة الفن ،التي يعانيها ويعيشها ، انساننا العربي ، وانا لا اوافق على الموضوعة التي تقول بأن كتابنا لم يعطوا ادبا على مستوى حركة القضية تاريخيا ، ولا وقائع صراعاتنا . فالمسالة ليست هنا . ولعلها قائمة في اننا اعطينا الكم الكثير ،وهذا شيء طبيعي ، في آداب امة كبيرة تنبعث من التراب . وبعد الكم ستاتي النوعية والرقيبالكلمة الى مستوى الفعل . ومن هذه الناحية ومن سائر النواحي المنوهبها، يمكن القول عن مجموعة « العراء » انها اضافة ممتازة ، واقتراح ـ سيظل انجازا ممتازا من ناحية ثابتة ـ لطريقة في الكتابة ـ فضلا عن الالتزام والرؤية والاخلاقية الثورية ، وصياغة ذلك كله في قصص رائعة وايصالية ، وهي اشياء تطبع مجموعة « العراء » بطابع لا ينسى .

هذه لمحة عن مجموعة سهيل ادريس الجديدة في « العراء » وانطباعات سريعة عنها ، وارجو ان ينهض النقاد العرب المختصون بدراستها ، اذ انهم سوف يجلون حينئذ اسرارا اخرى تشكل القيم الاساسية لهذا العمل الفني النضالي الجميل .

بيروت

كتب سياسية هامة
من منشورات دار الآداب

ثورة كوبا	فيديل كاسترو
الاشتراكية والتسيير الذاتي	البير ميستر
ماركسية القرن العشرين	روجيه غارودي
منعطف الاشتراكية الكبير	» »
كارل ماركس	» »
البديل	» »
اصول الفكر الماركسي	اوغست كورنو
تشريح جثة الاستعمار	غي دوبوشير
الماركسية والمسالة القومية	جورج طرابيشي
متى يطلع الفجر يا رفيق	جان بول اوليفييه
الاسس الاخلاقية للماركسية	اوجين كامنكا
صين ماو او الاشتراكية الاخرى	ك. س كارول
الانسان الاشتراكي	أسحق دويتشر
هكذا انتصر الفيتكونج	ريمون نشاطي
مذكرات مالكولم ×	
الاشتراكية العربية بين النظرية والتطبيق	
عبدالهادي الفكيكي	